

الجزء الأول

محتويات الجزء الأول

| الصفحة | |
|--------|--|
| ٥ | تصدير بقلم محسن مهدي |
| ١٥ | مقدمة المؤلف |
| ٢٨ | الفصل الأول : ملامح أمريكا الشمالية |
| | الفصل الثاني : أصل الأمريكيين الإنجليز، وأهميته لأحوالهم في المستقبل |
| ٣٦ | |
| ٥٢ | الفصل الثالث : أحوال الأمريكيين الإنجليز الاجتماعية |
| ٦٠ | الفصل الرابع : مبدأ سيادة الشعب |
| | الفصل الخامس : يجب أن ندرس أحوال الولايات المتحدة المختلفة قبل الكلام على حكومة الاتحاد في جملته |
| ٦٣ | |
| | الفصل السادس : السلطة القضائية في الولايات المتحدة وأثرها في المجتمع السياسي |
| ٩٢ | |
| ٩٩ | الفصل السابع : الولاية القضائية السياسية في الولايات المتحدة |
| ١٠٤ | الفصل الثامن : الدستور الاتحادي |
| | الفصل التاسع : كيف صح القول بأن الشعب هو الحاكم الفعلي في الولايات المتحدة |
| ١٥٤ | |
| ١٥٥ | الفصل العاشر : الأحزاب في الولايات المتحدة |
| ١٦١ | الفصل الحادي عشر : حرية الصحافة في الولايات المتحدة |
| ١٦٩ | الفصل الثاني عشر : الاجتماعات السياسية في الولايات المتحدة |
| ١٧٦ | الفصل الثالث عشر : الحكومة الديمقراطية في أمريكا |
| | الفصل الرابع عشر : الفوائد الحقيقية التي يجنيها المجتمع الأمريكي من الحكم الديمقراطي |
| ٢٠٩ | |
| | الفصل الخامس عشر : سلطة الأغلبية غير المحدودة في الولايات المتحدة، وعواقبها |
| ٢٢٤ | |

الصفحة

| | | |
|-----|----------------|--|
| ٢٣٨ | المتحدة | الفصل السادس عشر : الأسباب التي تقلل من طغيان الأغلبية في الولايات المتحدة |
| ٢٥١ | | الفصل السابع عشر : الأسباب الأخرى الرئيسية التي يمكن أن تؤدي إلى صيانة الجمهوريات الديمقراطية في الولايات المتحدة |
| ٢٨٩ | المستقبل | الفصل الثامن عشر : الأجناس الثلاثة التي تسكن أقاليم الولايات المتحدة، أحوالها الحاضرة وما يحتمل أن تكون عليه في المستقبل |
| ٣٦٥ | | ختام : |

مقدمة المؤلف

لم أعجب من شيء من تلك الأشياء الجديدة التي استرعت نظري في أمريكا طوال المدة التي قضيتها فيها ، كمعجبي الشديد من تساوى أفراد الشعب في أحوالهم الاجتماعية ، ولكني لم ألبث أن وقفت على ما هذه الحقيقة الأساسية من عظيم الأثر في مجرى شئون المجتمع كله ، إذ هي التي توجه الرأي العام اتجاهاً خاصاً ، وهي التي صبغت القوانين بصبغة معينة ، وزودت الحاكمين بمبادئ جديدة ، وأكسبت المحكومين عادات خاصة كذلك .

وسرعان ما اتضح لي أن التأثير البالغ لهذه الحقيقة ذاتها قد امتد إلى نزعة الدولة في السياسة ، كما امتد إلى قوانينها ، وتجاوزها إلى غيرها . ولم يكن تأثيرها في المجتمع المدني بأقل منه في الحكومة ، فقد خلقت هذه الحقيقة آراء جديدة ، وولدت في الناس عواطف شتى ، واستحدثت عادات ، وعدلت ما لم توجهه وبدلت فيه . وكلما تقدمت في دراسة المجتمع الأمريكي ازدادت ثقة بأن هذه المساواة في الأحوال الاجتماعية هي الحقيقة الأساسية فعلاً التي يبدو أن سائر الحقائق الجزئية مستمدة كلها منها . فهي النقطة المركزية التي كانت تنتهي إليها ملاحظاتى دائماً .

ولما وجهت فكري شطر نصف الكرة الذي نعيش فيه نحن . رأيت ما يشبه هذا المنظر الذي شاهدته في الولايات المتحدة . ولاحظت أن المساواة في الأحوال الاجتماعية فيها . وإن لم تصل بعد إلى المدى الذي وصلت إليه في الولايات المتحدة . تقترب باستمرار من ذلك المدى ، وتجلبت لي الديمقراطية عينها التي تسود المجتمعات الأمريكية . وقد أخذت تزداد قوة في أوروبا .

ومن هنا عنت لي فكرة وضع هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ .

فثم ثورة ديمقراطية كبرى قائمة الآن بين ظهرانينا في أوروبا . ومع أن هذه الثورة لا تخفى على أحد ، فالناس لا ينظرون إليها جميعاً من وجهة نظر واحدة . فقد بدت لبعضهم ظاهرة جديدة كل الجدة ، ولكنها عارضة لا تلبث أن تمر ، وداعيمهم الأمل بأنهم يستطيعون أن يقفوها عند حدها . وبدت لبعض آخر قوة لا قبل لأحد بمقاومتها . فهي في نظرهم أكثر نزعات التاريخ استقراراً ، وقدماً ، وبقاءً .

ثم إذا بي أعود بفكري لحظة إلى ما كانت عليه فرنسا من سبعة قرون مضت . عندما كانت البلاد كلها في أيدي عدد قليل من الأسر . يملك أربابها الأراضي ويتولون شئون الحكم ، وتتوارث ذرياتها حق الحكم هذا جيلاً بعد جيل ، مع ما تتوارثه من المال والعقار . وكانت القوة العاشمة هي الوسيلة الوحيدة التي يؤثر بها الناس بعضهم في بعض . وكانت ملكية الأراضي والعقارات مصدر قوتهم الوحيد .

ولكن ما أن قامت قوة رجال الدين السياسية حتى تزايدت وانتشرت ، ففتح القسس صفوفهم لجميع الطبقات - فتحوها للفنى وللفقير ، وللسوقة وللنبلاء ، فدخلت المساواة دور الحكومة عن طريق الكنيسة . فمن كان يعيش من قبل قنًا من أقنان الأرض يقضى حياته كلها فى عبودية متصلة ، استطاع أن يتبوأ مكانه بين الأشراف ، بوصفه قسيسا ، بل كثيرا ما بلغ مكانة أسمى من مكانة ذوى الرؤوس المتوجة أنفسهم .

وكلما ازداد المجتمع استقراراً ، واستبحر فيه العمران ، ازدادت العلاقات التى بين الناس تعقيداً وعدداً ، فمست الحاجة إلى وضع قوانين مدنية . وسرعان ما برز رجال القانون من حول المحاكم وغرفها التى يعلوها التراب ليظهروا فى بلاط الملك جنباً إلى جنب مع البارونات الإقطاعيين الذين يرتدون الفراء ويلبسون الزرد والألمات .

وبينا كان الملوك يقضون على أنفسهم بمشروعاتهم الضخام ، وكان الأشراف يستفدون مواردهم فيما يشنونه بعضهم على بعض من حروب خاصة ، ومبارزات ، كانت طبقات الشعب الوطنية تثرى من التجارة ، وأضحى الناس يدركون ما للمال من قوة لها أثرها فى شئون الدولة ، وفتحت الأعمال طريقاً جديدة إلى القوة والسلطان ، وارتفع رجال المال حتى صاروا قوة سياسية يتملقهم الناس ويحتقرونهم فى آن واحد .

وشياً فشيئاً استفاضت الاستشارة وانتشر التعليم بين الناس ، وتكون فيهم ميل إلى تذوق الأدب والفنون ، وعاون العقل والإرادة على إحراز النجاح ، وصارت المعارف وسيلة إلى الحكم ، وأضحى الذكاء قوة اجتماعية ، وأسهم الرجل المتعلم فى شئون الدولة . وجعلت قيمة الأصل والحسب ، التى كان يقدرها الناس ويعلون من شأنها ، تنحط بسرعة كلما وقف الناس على مسالك جديدة توصلهم إلى القوة والسلطان . لقد كان الحصول على مرتبة « الأشراف » فى القرن الحادى عشر أمراً دونه كل ثمن . أما فى القرن الثالث عشر فقد أصبح شراؤها ميسوراً . فمنذ سنة ١٢٧٠ بدأت ألقاب « الشرف » تمنح لراعيها . وهكذا دخلت المساواة الحكومة على أيدي الأرسقراطيين أنفسهم .

وكان أحياناً ما يحدث فى هذه القرون السبعة الماضية أن الأشراف ، فى مقاومتهم سلطة التاج ، أو فى إضعافهم سلطة منافسيهم ، كانوا يمنحون الشعب شيئاً من السلطة السياسية ، وأكثر من ذلك أن الملك نفسه كان يسمح للطبقات التى دون طبقة الأشراف ، بقسط من الحكم بقصد الحد من سلطة الأرسقراطيين وكسر شوكتهم .

وكان ملوك فرنسا أنشط الناس دائماً وأتبتهم فى العمل على التسوية بين طبقات الشعب . فعندما يكونون أقوياء طامحين ، لم يألوا جهداً فى النهوض بالشعب إلى مستوى النبلاء ، أما عندما يكونون ضعافاً أو معتدلين فإنهم يكتفون للشعب من أن يسمو عليهم . وهكذا كان بعضهم يعاون الديمقراطية بمواهبه ، ويعاونه آخرون برذائلهم . فلويس الحادى عشر ولويس الرابع عشر نزلا بجميع الناس الذين دون مستوى العرش ، إلى مستوى واحد

من حيث الخضوع والإذعان . ثم جاء لويس الخامس عشر فهبط بنفسه وببلاطه إلى الأرض .

ولما أصبح في استطاعة المواطنين أن يحوزوا الأراضي على أساس غير أساس النظام الإقطاعي ، وأصبحت الثروة الشخصية تؤدي بدورها إلى القوة والسلطان ، صار كل كشف يتم في الفنون ، وكل تحسن يحدث في شئون الاتجار بالسلع المصنوعة ، يخلق عناصر جيدة من عناصر المساواة بين الناس ، ومن ثم كان كل اختراع جديد ، وكل حاجة جديدة يحدتها هذا الاختراع في نفوس الناس ، وكل رغبة تتطلب إرضاء ما ، كلها خطوات جديدة ، في سبيل إيجاد مساواة عامة بين الناس ، فالليل إلى الكماليات ، وحب الحرب ، وسلطان «الموضة» الجديدة ، وأعمق الشهوات التي تعتلج في نفوس الإنسان ، وكذلك أكثرها ضحولة وسطحية ، تتصافر كلها على إثراء الفقير وإفقار الغني .

ومن يوم أن صارت الأعمال العقلية مصدر قوة وثروة ، صارت كل زيادة تضاف إلى العلم ، وكل حقيقة جديدة ، أو فكرة جديدة ، مصدر قوة في متناول أفراد الشعب . فالشعر ، والبلاغة ، والذكريات ، وحل العقل وزخارفه ، وحنّة الخيال ، وعمق الفكرة ، وسائر المواهب التي تمنحها العناية الإلهية لمن تشاء من الناس - أدت كلها إلى العمل على ما فيه صالح الديمقراطية . وحتى عندما تكون هذه المواهب في خصوم الديمقراطية وأعدائها ، فإنها ما تزال مع ذلك تخدم الديمقراطية بإبرازها عظمة الإنسان الطبيعية جليلة سافرة للعيان . وهكذا كثرت فوحها بانتشار كل فتح جديد من فوح الحضارة والعلم ، وأضحت الآداب أشبه بدور صناعة عامة مفتوحة الأبواب للناس جميعاً يدخلونها كل يوم ، الفقير منهم والضعيف ، ليتزودوا منها بالسلاح .

ويندر أن نجد في تاريخنا حدثاً عظيماً واحداً من أحداث القرون السبعة الماضية لم يؤد إلى المساواة بين الناس .

لقد شتت الحروب الصليبية والحروب الإنجليزية شمل الأشراف ، ووزعت أراضيهم ، وقامت الهيئات البلدية بإدخال الحرية الديمقراطية في صميم البلاد الملكية الإقطاعية ، وسوّى اختراع البارود بين السيد والتابع في ميادين الحرب ، وفتح فن الطباعة المصادر كلها لعقول جميع الطبقات ، وجلب البريد العلم والمعرفة إلى باب صاحب الكوخ كما جلبها لصاحب القصر المنيف ، وقررت البروتستانتية أن كل الناس سواء في تلمسهم الطريق إلى مرضاة الله ، وفتح استكشاف أمريكا آفاقاً من الطرق الجديدة إلى الثروة ، وصل بالمغامرين المغمورين إلى الغنى والقوة . فإن نحن بدأنا بالقرن الحادى عشر ، وجعلنا نستقصى ماجرى في فرنسا ، كل نصف قرن ، أدركنا أن في آخر كل فترة من هذه الفترات حدثت ثورة مزدوجة في أحوال المجتمع . فقد نزل النيل درجات في السلم الاجتماعي ، على حين صعد ابن الشعب في ذلك السلم نفسه ، فهبط الأول وارتفع الثاني ، وكان كل نصف قرن يمضى يقرب الواحد من الآخر ، ولا يلبثان أن يلتقيا .

فالأحداث المختلفة التي جرت في حياة الشعوب القومية ، تحولت في كل مكان إلى مافيه مصلحة الديمقراطية ، فعاون الناس جميعاً بجهودهم : من عمل منهم في هذه السبل ، عن قصد ونية ، ومن عمل فيها على غير وعى منه ، من كافح في سبيلها ، ومن أعلن نفسه خصماً صريحاً لها ، فكلهم انساقوا إلى السير في اتجاه واحد وعملوا معاً على تحقيق غرض واحد . لقد كانوا كلهم أدوات طيبة صماء في يد العناية الإلهية .

وهكذا يعد التطور التدريجي لمبدأ المساواة إذن حقيقة علوية تتصف بجميع الصفات التي لأمثال هذه الحقائق القدسية . فهو حقيقة عالمية باقية ، تأتي دائماً على بنى الإنسان أن يتدخلوا فيها ، ذلك إلى أن جميع الأحداث ، وجميع الناس قد أسهموا في العمل على تقدم هذا المبدأ : مبدأ المساواة .

فهل من الحكمة أن نتصور أن حركة اجتماعية مثل هذه ترجع أسبابها إلى مثل هذه الفترة الطويلة يمكن أن تعطلها جهود جيل واحد؟ وهل يجوز لنا أن نتصور أن الديمقراطية التي قلبت النظام الإقطاعي ، وقهرت الملوك والأقيال يمكن أن تنكص وتراجع أمام جماعة التجار وأصحاب رعوس الأموال؟ فهل يمكن أن تتوقف الآن هذه الحركة الديمقراطية بعد أن بلغت ما بلغت من القوة وبلغ خصومها ما بلغوا من الضعف؟

فإلى أين نحن سائرون إذن؟ لاندري . فوسائل المقارنة تعوزنا . وثمّ الآن مساواة كبيرة في الأحوال الاجتماعية في البلاد الأوربية أكبر مما كانت عليه في أى عصر مضى ، وفي أى بلد آخر من بلاد العالم ، حتى أن جسامه ما قد تم فعلاً لتحول دون التنبؤ بما يمكن أن يتم . إن الكتاب الذى نقدمه اليوم لجمهرة القراء قد وضع كله تحت تأثير نوع من الرهبة الدينية غشيت نفس المؤلف بعد أن شاهد تلك الثورة الديمقراطية التي لا تقاوم ، والتي ظلت تتقدم قروناً طوالاً ، على الرغم مما وضع في سبيلها من عراقيل ، والتي ما زالت تتقدم وسط الأنقاض التي كانت هي السبب فيها .

فليس من الضروري أن ينزل الله على أنبيائه ما يكشف لنا صراحة عن معالم مشيئته التي لا ريب فيها ، فحسبنا أن نتأمل السنن الكونية العادية وندركها ونعرف نزعة الأحداث المستمرة واتجاهها ، فإنى لأعرف مثلاً ، من غير حاجة إلى وحى خاص ، أن الكواكب تتحرك في أفلاكها ، وهي أفلاك رسمتها لها يد البارئ .

فلو أن أهل عصرنا اقتنعوا ، بعد طول الملاحظة والتفكير السديد المخلص ، أن تطور المساواة الاجتماعية التدريجي ، السائر قدماً ، إنما هو تاريخهم الماضى ، وتاريخهم في المستقبل كذلك - لأضفى هذا الكشف وحده على هذا التطور صفة مشيئة إلهية مقدسة ، ولا ستبان لهم أن أية محاولة لتعطيل سير الديمقراطية تعد في هذه الحالة معاندة لإرادة الله ، وعندئذ لا يكون أمام الأمم إلا أن تعمل ما استطاعت للاستفادة من حظها الاجتماعى الذى قسمته لها العناية الربانية .

تبدو لي الأمم الأوروبية المعاصرة في مظهر يدعو إلى الخوف ، بل إلى الفرع الشديد ، فالحركة التي تدفعها قد بلغت من القوة مبلغاً لا يتسنى معه لأحد أن يقفها أو يعطلها ، ولكنها مع ذلك لم تصبح بعد من السرعة بحيث تجعلنا نأس من السيطرة عليها وتوجيهها . فما زالت مصائر هذه الشعوب في أيدي أهلها ولكنهم يخشى عليهم أن يفقدوا سريعاً القدرة على ضبطها والإشراف عليها .

فأول واجب من الواجبات المفروضة الآن على أولئك الذين يوجهون أمور الناس ، أن يولوا الديمقراطية ويتعهدوها بالتربية والتعليم ، وأن يوقفوا فيها معتقداتها الدينية من جديد ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وأن يطهروا أخلاقها مما علق بها من شوائب ، وأن ينظموا حركاتها ، ويحلوا المعرفة بالعلوم السياسية محل عدم الخبرة ، والشعور بالمصلحة الحقيقية محل النزعات الفطرية العمياء ، وأن يلائموا بين حكومتها وبين الزمان والمكان ، ويكيفوها بحسب الناس والأحوال . فما أشد حاجتنا إلى علوم سياسية جديدة ، تصلح لعالم جديد ! ومع ذلك فهذا أقل ما نفكر فيه . ومع أننا وسط تيار سريع فإننا نتعنت ونركز أنظارنا في بعض الأنقاض التي مازلنا نراها ملقاة على الشاطئ الذي غادرناه ، على حين يحملنا التيار ويجرفنا إلى الوراء نحو الهاوية !

لم تتقدم الثورة الاجتماعية الكبرى التي وصفتها توأ في أية بلد من بلاد العالم الأوربي خطوات سراعاً مثلما تقدمت في فرنسا ، إلا أن تقدمها هذا كان يجيء مصادفة ومن غير أى توجيه . فرؤساء الدول لم يستعدوا لها أى استعداد من قبل ، فكأن بها قد تقدمت على الرغم منهم ، بل وبدون علمهم . فأقوى طبقات الأمة وأذكاها عقلاً ، وأكرمها خلقاً ، لم تتصد لضبطها ، والإشراف عليها وإرشادها . فقد تركت الديمقراطية لنزعاتها الأولية الجامحة ، فمت كما ينمو الأطفال الذين حرّموا توجيه آبائهم وحصلوا على ما حصلوا عليه من تربية وتعليم من الشوارع العامة ، فلم يعرفوا غير رذائل المجتمع وما فيه من بؤس ومن شقاء . فكأن وجودها كان غير معروف إلى أن اكتسبت فجأة سلطة عظيمة ، وعندئذ خضع الجميع لأدنى أهوائها في ذلة وهوان ، فعبدها على أنها صنم القوة . وبعد أن وهنت من جرّاء إسرافها على نفسها ، خطر للمشرعين خاطر أحرق ، وذلك أن يقضوا عليها بدلاً من أن يسعوا وراء تعليمها وتهذيبها واستصلاح ما بها من رذائل ، فلم يذلوا أى جهد في إعدادها لأن تتولى الحكم ، بل عقدوا العزم على إبعادها عن نطاقه .

فكانت النتيجة أن حدثت الثورة الديمقراطية في جسم المجتمع من غير أن يحدث معها تغيير يذكر في القوانين والعادات والأخلاق ، وهو ذلك التغيير الذى كان يجب أن يتم حتى تكون هذه الثورة مفيدة حقاً . فلا عجب أن صارت لدينا الديمقراطية من غير ما يخفف ما فيها من مثالب ، ويبرز ما لها من ميزات طيبة . وعلى الرغم من أننا نرى ما تجرّه هذه الديمقراطية من شرور ، فما زلنا نجهد المنافع التي تعود علينا من ورائها .

وعندما كانت قوة التاج ، تؤيدها الأرستقراطية ، تحكم دول أوروبا في هدوء وسلام ، كان للمجتمع وسط مافيه من بؤس ، عدة مصادر للسعادة لاتكاد تختار الآن على بال أحد ، ولا يكاد أحد يقدرها قدرها . فالسلطة التي كان يستمتع بها نفر ضئيل من رعية الملك كانت تقف حاجزاً منيعاً يحول دون استبداده . فهذا الملك نفسه الذي كان يشعر بالصبغة الإلهية التي يستمتع بها في نظر الجمهور ، صار يستمد من الاحترام الذي كان يوحى به إلى الشعب ، دافعاً يحفزه إلى مراعاة العدالة في حسن استخدامه سلطته . وكان النبلاء على سمو مركزهم وارتفاعه عن مستوى مركز الشعب بمراحل طويلة ، يعنون بشئون هذا الشعب عناية هادئة رحيمة ، أشبه بعناية الراعي بقطيعه ، ومن غير أن يعترفوا بأن الفقراء مساوون لهم ، كانوا يراعون مصائرهم على أنها أمانة عهدت بها إليهم العناية الإلهية . فأفراد الشعب لم يتصوروا أبداً أية فكرة عن حالة اجتماعية تختلف عما هم فيه ، ولم يكونوا يتوقعون أبداً أن يصبحوا في يوم ما مساوئين لسادتهم ، فكانوا يحصلون على الخير منهم دون أن يناقشوه فيما لهم من حقوق ، وكانوا يودونهم ويتعلقون بهم ماداموا متذرعين بالحلم والعدالة ، وقد خضعوا لابتزازهم ولتسلفهم ، في غير مقاومة وفي غير تذلل ، خضوعهم لقدرة الله وقضائه ، وفضلاً عن ذلك فالعادة والعرف كانا قد وضعا حدوداً للظلم وأنشأ نوعاً من القانون وسط القوة والجبروت .

ولما كان النبيل لا يخطر بباله أن أحداً يمكن أن تحدته نفسه بأن يسلبه امتيازاته التي يعتقد أنها امتيازات مشروعة ، وكان الفقير يعد ما هو فيه من ضعف ومن قصور نتيجة نظام طبيعي ثابت ، كان من السهل علينا أن نتصور أن شيئاً من حسن النية والتفاهم قام بين هاتين الطبقتين المختلفتين كل الاختلاف من حيث ما قدر لكل منهما . فالتفاوت والبؤس كانا إذن في المجتمع ، ولكن نفس أية طبقة من الطبقتين لم تحط ولم تذلل .

إن الناس لا يفسدون بممارستهم السلطة ، ولا هم ينحطون ويدلون بالتزامهم عادة الطاعة والإذعان ، ولكنهم يفسدون بممارستهم لسلطة يعلمون أنها غير مشروعة ، وينحطون ويدلون لانقيادهم لحكم يعتبرونه مغتصباً وظالماً .

ففي ناحية ، نجد الثروة والقوة والفراغ وما يتبعها من السعي وراء المجد والشرف والكماليات ، واكتساب الأذواق الرفيعة والمتع العقلية وتعهده الفنون الجميلة ، أما في الناحية الأخرى فلا نجد غير الكدح ، وجفوة الطبع والجهل ، ومع ذلك لا يخلو الأمر من أن نصادف وسط هذا الحشد من الجفافة والجهلة شهوات متأججة ، وعواطف كريمة وإيماناً بالدين راسخاً ، وفضائل متطرفة .

فإذا ما نظمت الجماعة على هذا النحو حق لها أن تفخر بما تنعم به من الاستقرار والقوة ، والمجد خاصة .

ولكن الصورة قد تغيرت الآن ، فزالت الفروق التي بين مراتب الناس تدريجياً ،

وتداعت الحواجز التي كانت تفصل بين بنى الإنسان ، وتوزعت الملكية ، واشترك كثيرون بنصيب في السلطة والسلطان ، وانتشر بينهم ضوء العقل ، واتجهت قدرات الناس من مختلف الطبقات إلى المساواة ، فأضحى المجتمع ديمقراطياً ، وأخذ سلطان الديمقراطية يغشى تدريجياً النظم والعرف والعادات في هدوء وسلام .

وهكذا نستطيع أن نتصور مجتمعاً يشعر فيه الناس جميعاً شعوراً متساوياً بالحق والاحترام للقوانين التي يعدون أنفسهم واضعياً ، وتكون سلطة الحكومة فيه (المجتمع) موضع احترام لأنها سلطة ضرورية ، وليست باعتبارها سلطة إلهية . ولا يكون إخلاص الرعية فيه لرئيس الحكومة صادراً عن هوى وعاطفة ، بل عن اقتناع هادئ يقوم على الفكر والروية . وإذا صار صاحب الحق يعرف أن حقه مكفول له . ولا يعتدى عليه ، قام بين الطبقات نوع من الثقة الجديرة بالرجولة . ومعاملة متبادلة بين بعضها وبعض ، بعيدة عن كل تصلف واستعلاء ، وعن كل ذلة وهوان . ولما كان الشعب يعرف حق المعرفة مصالحه الحقيقية ، فإنه سرعان ما يدرك أن عليه أن يقوم بأداء ما عليه من واجبات نحو الدولة حتى يستطيع أن يفيد من مزايا وجودها . فاتحاد المواطنين طوعية واختياراً ، يحل إذن محل سلطة الأشراف الفردية . وتصبح الجماعة بمأمن من الظلم . ومن التهتك والاستهتار .

لأخفى أن المجتمع في الدولة الديمقراطية التي قامت على هذا النحو لا يكون مجتمعاً جامداً راکداً . فدوافع الهيئة الاجتماعية يمكن أن تنظم فيه بشكل يجعلها تقدمية . وإن كان مثل هذا المجتمع أقل أهبة من المجتمع الأرستقراطي . فهو في الوقت نفسه أقل منه بؤساً وشقاء . وقد تكون اللذات فيه أقل إسرافاً ، ولكن الاستمتاع بوسائل الراحة والنعيم تكون أعم وأشمل ، وقد تكون العلوم فيه أقل انتشاراً ، ولكن الجهل فيه أقل ، وقد تكون عواطف الناس الحياشة فيه أقل حدة ، ولكن عادات الأمة تكون أرق وأكثر تذبذباً . إن الرذائل تزداد ولكن الجرائم ستقل .

وفي حالة فقدان التحمس والولاء المتقد ، يصح أن يطلب إلى مواطني الجماعة بذل تضحيات كبيرة بأن نلجأ إلى عقولهم وخيرتهم ، فكل فرد سيحس بالحاجة نفسها إلى الاتحاد مع زملائه ليحمي ضعفه نفسه ، ولما كان يعلم أنه لا يستطيع أن ينال معونتهم إلا على شريطة أن يقدم لهم هو ما يستطيع من العون ، فسرعان ما يدرك أن مصلحته الشخصية تتفق ومصالح الجماعة بأسرها . قد تكون الأمة في جلتها أقل تألقاً ، وأقل أمجاداً ، بل وربما أقل قوة أيضاً ، ولكن الغالبية من المواطنين سيستمعون بقسط أوفر من الرخاء والازدهار ، ويظل الشعب كله أكثر مسالمة ، لأن اليأس قد استولى عليه من قدرته على تغيير أوضاعه إلى ما هو خير منها ، بل لأنه صار يشعر أنه في خير ورضى فعلاً .

فإن لم تكن نتائج هذه الحال طيبة أو نافعة كلها ، لاستولت الجماعة على كل ما هو طيب ونافع على الأقل . وبعد أن يكون الناس قد طلقوا إلى الأبد المزايا الاجتماعية التي كان يمكن أن تقدمها إليهم الأرسقراطية فإنهم سيحززون كل الفوائد التي تستطيع أن توفرها لهم الديمقراطية .

ولنا أن نساءل هنا عما أقمناه من مؤسسات واتخذناه من آراء وعادات بدلا مما خلفناه وراءنا أنقاضاً من مؤسسات أجدادنا ، وآرائهم وعاداتهم .

ولئن زالت روعة الملكية وفتتها ، فإن جلاله القوانين لم تحل بعد محلها . ولئن تعلم الناس ازدياد كل سلطة إلا أنهم مازالوا يخشون بأسها ، وأن الخوف لينتزع منهم الآن من التوقير والمحبة أكثر مما كانوا يقدمونه منهما من قبل .

لقد دمرنا القوى الفردية التي كانت كل قوة منها تستطيع أن تصمد بمفردها في وجه الاستبداد تصارعه ، ولكن الحكومة وحدها هي التي ورثت جميع المزايا التي انتزعت من الأسرة ومن النقابات الصناعية والأفراد . فقد حل ضعف الأمة كلها محل القوة التي كانت لفئة قليلة من المواطنين وهي قوة كثيراً ما كانت محافظة ، وإن كانت أحياناً ظالمة غشوما .

لقد قصر تقسيم الملكيات مسافة الخلف التي بين الأغنياء والفقراء ، ولكن يبدو أنهم كلما تقاربوا وجدوا لهم أسباباً تزيد في كراهيتهم بعضهم لبعض ، واشتد بهم التحاسد والخوف يدفعان كل فريق منهما إلى العمل على إبعاد الفريق الآخر عن القوة والسلطان . ففكرة الحق معدومة في نظر كل منهما ، وأصبحت القوة وحدها هي الحجة في الحاضر ، والضمان الوحيد في المستقبل .

احتفظ الفقير بالأموال التي كان يتعصب لها أجداده ويتحيزون ، من غير أن يحتفظ بما كان لهم من إيمان ، واستبقى جهلهم ، من غير أن يراعى ما كان لهم من فضائل ، واتخذ مبدأ المصلحة الشخصية أساساً لكل أفعاله من غير أن يفهم ذلك العلم الذي هو أساس استخدام هذا المبدأ ، فكانت أنانيته لا تقل عما كان عليه من قبل إخلاصه للآخرين .

فإن بدا المجتمع هادئاً فلا يرجع هدوءه هذا إلى شعوره بما له من قوة وما هو فيه من سعادة ، بل يرجع إلى أنه يخشى ضعفه وعجزه ، إذ يخشى أن يبذل مجهوداً يمكن أن يكلفه حياته كلها ، إن كل امرئ يستشعر بالداء ، ولكن لا يوجد لدى أى منهم قدر كاف سواء من الشجاعة أو الهمة على البحث عن العلاج . فالرغبات والمسرات والحسرات لا تؤدي في الوقت الحاضر إلى شيء مرقى أو دائم ، فما أشبهها بشهوات الشيوخ التي لا تؤدي إلا إلى الضعف والخور .

ولقد نبذنا كل ما خلفته لنا الأوضاع القديمة من خير من غير أن نحصل على ما يمكن أن تقدمه لنا الأوضاع الحاضرة من منافع تعوضنا عما نبذناه . لقد دمرنا مجتمعاً

أرستقراطياً، ثم وقفنا راضين قانعين وسط أنقاضه نتأملها كأننا عزمنا أمرنا على الوقوف وسطها ثابتين لانريم .

هذا، وليست الظواهر التي تتجلى لنا في دنيا العقل بأقل مدعاة للرتاء والأسى . فقد أقيمت العراقيل في سبيل الديمقراطية الفرنسية ، أو تركت لأهوائها الجائعة ، فاندفعت تقلب كل ما اعترض طريقها وتدكه، وتقلقل كل ما لم تستطع أن تقوضه . فسلطان الديمقراطية لم يدخل فرنسا تدريجياً ، ولم يقم فيها بهدوء وسلام . ومع ذلك فقد كانت تتقدم دائماً وسط الاضطراب والتيج اللذين ترتبا على الصراع القائم . وفي غمرة المعركة صار كل مشترك فيها يندفع إلى ما وراء الحدود الطبيعية لآرائه ، يحفره إلى ذلك ما لخصومه من عقائد وتجاوزات إلى أن يفقد رؤية الغاية من جهوده، ويسير في طريق لا يتفق وعواطفه الحقيقية، ولا مع ما في سريرة نفسه من ميول ، ومن ثم نشأ ذلك الاضطراب الذي اضطررنا إلى مشاهدته .

لأذكر أن شيئاً في التاريخ أولى بالشفقة والرتاء من تلك المشاهد التي تجرى الآن تحت سمعنا وبصرنا ، فكأن الرابطة الطبيعية التي تربط آراء الإنسان بأذواقه ، وتربط أفعاله بمبادئه ، قد انفصمت . ويبدو أن الانسجام الذي كان يراعى دائماً بين مشاعر الناس وآرائهم قد زال الآن ، وأن قوانين التمثيل الأخلاق قد أصبحت في خبر كان .

مازال بيننا كثير من المؤمنين المتحمسين كل التحمس للدين . والذين تشبعت نفوسهم بالأفكار المتصلة بالحياة الأخرى فيسارعون إلى مناصرة قضية الحرية الإنسانية من حيث هي مصدر كل سمو خلقي . فالدين الذي أعلن على الملأ أن الناس جميعهم متساوون في نظر الله ، لا يسهه إلا أن يقرر أن جميع المواطنين متساوون في نظر القانون . ولكن ظروفاً وأحداثاً تأمرت تأمرأ غريباً فوجد هذا الدين نفسه قد تورط في وقت ما واتصل بالنظم التي تعمل الديمقراطية على القضاء عليها ، حتى أنه كثيراً ما رفض المساواة التي يجبا وجعل يلعن قضية الحرية بوصفها خصماً له ، وهي تلك القضية التي كان يمكن أن يبارك جهودها لو أنه تحالف معها .

وإلى جانب هؤلاء الرجال المتدينين أرى رجالاً اتجهت أنظارهم إلى الأرض بدلا من أن تتوجه إلى السماء . هؤلاء هم أنصار الحرية لا بوصفها مصدر أنبل الفضائل فحسب ، بل لأنها أيضاً أصل لكل المزايا الثابتة . إنهم يودون مخلصين أن يضمّنوا سلطانها ، وأن يسروا وصول نعمها لبني الإنسان ، فكان طبيعياً أن يسارع هؤلاء الأنصار إلى الاستعانة بالدين . فهم لا بد يعلمون أن الحرية لا يمكن أن تقوم بغير مراعاة للأخلاق الطيبة ، وأن الأخلاق الطيبة لا يمكن أن تقوم من غير إيمان . ولكنهم رأوا الدين في صفوف خصومهم ، فكان هذا حسبهم ، فبعضهم يهاجمونه جهاراً ، والباقيون يخشون أن يدافعوا عنه .

كان أذلاء العقول، الذين يبيعون ضمائرهم، يدافعون عن الرق والعبودية في العصور السالفة، على حين كان المستقلون وذوو القلوب الكريمة يكافحون مستيئين في غير أمل في سبيل العمل على إنقاذ حرية البشر. وهانحن قد صرنا الآن نرى رجالاً من ذوى الأخلاق السامية الكريمة ثابين آراؤهم ميولهم مباشرة، فيمدحون تلك العبودية والخصه اللتين لم يعرفوهما قط، وثم آخرون غيرهم يتحدثون، على العكس منهم، عن الحرية، حديث من يشعر بقدسيها وجلالها، ويرفعون عقائرتهم يطالبون للإنسانية بحقوق كانوا دائماً يرفضون أن يعترفوا هم بها.

وثم أفراد فضلاء مسالمون أهلتهم أخلاقهم الطاهرة، وعاداتهم الهادئة وثوراهم العريض، ومواهبهم العالية لتولى زعامة بنى جنسهم. فحبهم وطنهم حب، سداه ولحمته الإخلاص، وهم لا يترددون في القيام بأكبر التضحيات في سبيل هذا الوطن. ولكن الحضارة كثيراً ماتجدهم مع ذلك في صفوف خصومها، فهم يخلطون بين مساوتها ومزاياها، وفكرة الشر لا تفصل في عقولهم عن فكرة البدع المستحدثة.

وإلى جانب هؤلاء نجد آخرين هدفهم أن يجعلوا البشر ماديين، وأن يؤثروا النافع الذى يحقق أغراضهم من غير أن يعأوا بما هو عدل وحق، وأن يحصلوا على المعرفة من غير أن يؤمنوا بها، وعلى السعادة من غير نظر إلى الفضيلة، ويدعون أنهم أبطال الحضارة، وينصبون أنفسهم بكل قحة على رأسها، وبذلك يكونون قد اغتصبوا مكانة تركت لهم، وهم بها غير جديرين على الإطلاق.

فأين نحن إذن ؟

إن الرجال المتدينين يناصبون الحرية العداء، وأنصار الحرية يهاجون الدين، وذوو العقول الكبيرة الراجحة يشجعون العبودية، ولؤماء الناس وأخسهم يدعون إلى الاستقلال، والمواطنون الأمانة والمستترون يعارضون كل تقدم، على حين أن رجالاً خلوا من كل وطنية ومبادئ يدون في لباس رسل الحضارة والفكر.

ترى هل كان هذا حظ الأجيال التى سبقت جيلنا ؟ هل كان الإنسان يعيش دائماً في مثل ديانا هذه، حيث كل شىء في غير موضعه الذى يجب أن يكون فيه، وحيث الفضيلة في غير أهل العبقرية، وذوو المواهب خلوا من الشرف، وحيث يختلط حب النظام بالليل إلى ذوى البطش، والاستبداد، وتختلط عبادة الحرية المقدسة باحتقار القانون، وحيث الضوء الذى يلقى الضمير على أفعال الإنسان ضوء فاتر، وحيث لم يعد شىء يبدو محظوراً، أو مسموحاً به، كرىماً أو عاراً، حقاً أو باطلاً ؟

لم يخلق الله الإنسان ليتركه في كفاح متصل لا آخر له مع ذلك الشقاء العقلى الذى يحيط بنا، فقد شاء الخالق لشعوب أوروبا مستقبلاً أهدأ وأؤكد من حاضرها، لست أدرى

الغيب وما في علم الله ، إلا أنى سأظل أؤمن بما في علمه مادمت لا أستطيع أن أدرك مداه .
وخير لى أن أرتاب في مقدرتى من أن أتشكك في عدالة الله .

ليس في الدنيا غير بلد واحد يبدو أن الثورة الاجتماعية التى أتحدث عنها كادت أن تبلغ فيه أقصى حدودها الطبيعية ، وهى ثورة تمت فيه في يسر وسهولة ، وبعبارة أخرى يجمل بنا أن نقول أن ذاك البلد ، صار يجنى ثمار هذه الثورة الديمقراطية التى نعاني أمرها الآن ، دون أن تكون هذه الثورة نفسها قد حدثت فعلاً .

لقد فصل المهاجرون الذين نزلوا على شواطئ أمريكا واستقروا فيها في القرن السابع عشر ، بشكل ما ، المبدأ الديمقراطى عن سائر المبادئ التى كان يكافح ضدها في الدول الأوربية القديمة ، ونقلوه وحده إلى شواطئ الدنيا الجديدة حيث استطاع أن ينتشر في حرية كاملة وفي هدوء ، وأن يتعاون مع العرف والعادة على التأثير في القوانين وتعيين صبغتها العامة .

يدولى أن لاشك في أننا سنصل يوماً ما ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى ما وصلت إليه أمريكا من المساواة في الأحوال الاجتماعية مساواة تكاد تكون كاملة ، ولست أستتج من هذا أننا سنضطر إلى أن نستببط من تنظيم اجتماعى شبيه بهذا التنظيم النتائج نفسها التى استببطها الأمريكيون ، فإني بعيد كل البعد عن أن أظن أنهم قد اختاروا شكل الحكومة الوحيدة الذى يمكن أن تتخذه الديمقراطية . ولكن لما كان السبب الذى يؤدي إلى وضع القوانين والآداب في كل من البلدين واحداً ، كان من الخير كل الخير لنا أن نعرف ما أحدثته في كل منهما من تغيير .

لم يكن الأمر إذن مجرد إرضاء لفضول ، قد يكون مشروعاً ، أنى أخذت أدرس أحوال أمريكا ، لقد كنت أود أن أجد فيها علماً يمكن أن نفيد منه ونتنفع به . أما من يتصور أنى قصدت كتابة مدحه ، فقد وقع في خطأ غريب ، ولسوف يدرك ، بعد قراءة هذا الكتاب ، أن شيئاً من هذا لم يدر بخلدى ، وأنى لم أقصد أن أدافع عن شكل معين من أشكال الحكم أيّاً كان ذلك الشكل . لأنى أرى الجمال المطلق نادراً في أى نظام من نظم القوانين أيّاً كان ذلك النظام ، ولم أدع حتى إبداء رأى فيما إن كانت الثورة الاجتماعية ، التى أعتقد أنها ثورة طاعية لا قبل لأحد بمقاومتها ، مفيدة لبنى الإنسان ، أو مضرة بهم . لقد اعترفت بهذه الثورة من حيث إنها حقيقة تمت وأنجزت فعلاً ، أو هى على وشك أن تتم . وقد اخترت من بين الأمم التى حدث فيها هذا التطور على أهدأ ما يمكن ، وبلغ فيها أمته ، وذلك لأتبين نتائجها الطبيعية وأتوصل ، إن استطعت ، إلى الوسائل التى تجعلها نافعة لبنى الإنسان . ولست أخفى أنى رأيت في أمريكا أكثر من أمريكا وسعيت فيها وراء أن أصور الديمقراطية ذاتها بما لها من نزعات وسلمات وميول وتحزبات وشهوات حتى أدرك ما علينا أن نخشاه ، وما يحق لنا أن نرجوه من وراء تقدمها .

وحاولت في الجزء الأول أن أبين الفرق بين ما أتاحتها الديمقراطية من طريق - وقد تركت لميولها واتجاهاتها دون قيود على نزعاتها الفطرية - للقوانين تفرضه على الحكومة ، وبين ما فرضته بصفة عامة من سلطان على شئون الدولة . لقد عملت على استكشاف الأضرار والمنافع التي أدت إليها ، ودرست الاحتمالات التي اتخذها الأمريكيون في توجيهها ، كما درست كذلك تلك التي أغفلوها ، وتوليت بيان العوامل التي مكنت لها من أن تحكم المجتمع .

وكان غرضي أن أصور في جزء ثانٍ الأثر الذي تركه تساوى أحوال الناس الاجتماعية ، وقيام الحكومة الديمقراطية ، في المجتمع المدني في أمريكا من حيث العرف والآراء والعادات الأخلاقية ، إلا أن تمسسى لإخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود قد فتر . فقبل أن أنجز ما فرضته على نفسي سيكون عملي هذا قد أصبح غير ذى هدف ، فإن شخصاً آخر^(١) غيرى يكون قد عرض على القراء بعد قليل من الزمن ، سمات الخلق الأمريكي الرئيسية ، وتلطف في رسم صورة جدية ، فيكون قد أفاض على الحقيقة روعة ليس في مقدوري أن أباريه فيها .

لست أدرى إن كنت قد وفقت في التعبير عن مشاهداتي في أمريكا . ومهما يكن من أمر ، فإنى واثق من أن هذه كانت رغبتى الخالصة . فلم أحاول قط ، على علم منى ، أن أصوغ الحقائق على شكل يتفق مع الآراء ، بدلاً من أن أصوغ الآراء صياغة تتفق مع الحقائق .

وكنت كلما تيسر إثبات نقطة ما بالوثائق المكتوبة ، أحرص إلى النصوص الأصلية ، وإلى أصح المؤلفات ، وأدققها . وقد ذكرت مراجعى في الحواشى ، وللقرارىء أن يستوثق من صحتها إذا شاء^(٢) . أما فيما يختص بالآراء والعادات السياسية ، أو الملاحظات التي بشأن عادات البلاد ، فقد حاولت جهدى أن أرجع فيها إلى أكثر الناس علماً بها . وإن كانت النقطة التي أنا بصدد دراستها هامة ، أو موضع شك ، لم أكتف بشاهد واحد ، بل كونت آرائى على أساس جملة ما يدلى به عدد من الشهود ، وهنا لا مناص للقرارىء من أن يتق بما أقول بالضرورة ، فمن اليسير على أن أكثر من سرد الأسماء المعروفة له أو الجديرة بأن تكون كذلك ، تأييداً لما أقول ، إلا أنى تحاشيت اتباع هذه الطريقة ، إذ كثيراً ما يسمع الغريب وهو في بيت مضيفه بحقائق لها قيمتها ، ولكن صاحب الدار يود أن يخفيها حتى

(١) يشير المؤلف هنا إلى صديقه جستاف دو بومون زميله في رحلته إلى أمريكا ، وقد أصدر بومون كتابه المنتظر هذا في سنة ١٨٣٥ ، وكان عنوانه « ماري ، أو الرق في الولايات المتحدة » ، ولم يكن له تأثير يذكر .

(٢) الحواشى والمراجع التي يشير إليها المؤلف كثيرة ، منها ما ذكره في هوامش الصفحات ، وأغلبها في ملاحق في آخر الكتاب ، مما يدل على سعة اطلاعه وأمانته وسديده منهجه في البحث . هذا ، وقد أضاف إليها الشراح الكثير ، فإن ذكرناها ، مع ما نرى ضرورة إضافته من عدنا لتطلب ذلك مجلداً ضخماً .

عن مسامع أصدقائه الحميمين ، وعندئذ يجد الضيف نفسه ملزماً بأن يتعزى بالصمت المفروض عليه . ذلك إلى أن قصر المدة التي يقضيها السائح يستبعد كل خوف من تورطه في أية حماقة من هذا القبيل . ومع ذلك كله . فقد عنيت بتدوين كل حديث من هذا النوع عقب سماعه . ولكن مذكراتي هذه لن تفارق مكتبي . وإني لأؤثر أن أفضل فيما أقول ، على أن أضيف إلى قائمة أولئك الغرباء الذين يجازون كرم الرفادة بما يضايق المضيف ويسبب له الأسف والأسى .

وعلى الرغم مما بذلت من جهد في هذا الكتاب فلست أنسى مطلقاً أن ليس أيسر من نقده على من يشاء أن ينقده .

هذا ، والقراء الذين يعنون بدراسة الكتاب العناية الواجبة . سيجدون فيه فكرة تنتظم أجزاءه كلها وتربطها بعضها ببعض . ولكن تنوع الموضوعات التي على أن أعالجها عظيم . وليس يشق على القارئ أن يجد في الكتاب حقيقة منعزلة عن سياقها . تتناقض مع جملة ما فيه من حقائق ، أو يجد رأياً منعزلاً يتنافى مع ما قدمت من آراء . ولكنني أرجو منه أن يطالع كتابي هذا بالروح التي أملته على . واهتديت بها في عملي كله . وأن يحكم عليه بما تركه في نفسه من أثر عام . فإني لم أقم أحكامي كلها على اعتبار واحد فحسب . بل أقمتها على جملة ما توافر لي من أدلة وبيانات .

ويجب ألا يغرب عنا أن المؤلف الذي يحرص كل الحرص على أن يفهمه قراؤه ، يجب أن يصل بكل رأى يعن له إلى أقصى ما يفضي إليه من نتائج نظرية . بل إنه كثيراً ما يرى نفسه مضطراً إلى الوصول به إلى حافة الزائف . أو غير العمل . فإن كان ضرورياً أن يجد الإنسان أحياناً في سلوكه وأفعاله عما تقتضيه قواعد المنطق . فهذا لا يجوز في الكتابة والتحرير ، فالمرء منا يشق عليه ألا يكون منسجماً في لغته بقدر ما يعز عليه ألا يكون منسجماً مع نفسه في سلوكه وفي أخلاقه .

وختاماً ، فإني أعرض بنفسى في هذه المقدمة ما قد يعده الكثرة من القراء العيب الرئيسي في هذا الكتاب . إنه لم يوضع تأييداً لرأى شخص معين . ولم تكن لدى عند وضعه أية نية لأن أخدم به فريقاً من الناس . ولا أن أهاجم فريقاً آخر . ولم أقصد أن أرى الأشياء على خلاف ما يراها الناس ، بل كل ما في الأمر أني قصدت أن أنظر أبعد مما ينظرون ، فعلى حين أنهم شغلوا أنفسهم بالغد وحده . وجهت فكري إلى المستقبل كله .